

الأسرة في الإسلام

أ. عبد القادر عثماني*

إن الأسرة، أيها الإخوة في الله هي الأساس والقاعدة الثابتة التي يقوم عليها مجتمعنا بعد قيامه على أساس العقيدة الإسلامية، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾¹. هذه الآية الكريمة تبين أن قاعدة الحياة البشرية هي الأسرة، ولكي تكون الأسرة قوية وسليمة وسعيدة يجب أن تقوم على تقوى الله وإتباع شريعته.

وقانون الأسرة الجزائري الذي هو مستمد من أحكام الشريعة الإسلامية في أغلب مواده يؤكد هذا المعنى، فتقول المادة الثانية منه (الأسرة هي الخلية الأساسية للمجتمع، وتتكون من أشخاص تجمع بينهم صلة الزوجية وصلة القرابة) وتقول المادة الثالثة منه: (تعتمد الأسرة في حياتها على الترابط والتكافل وحسن المعاشرة والتربية الحسنة وحسن الخلق ونبذ الآفات الاجتماعية). وتقول المادة الرابعة (الزواج هو عقد يتم بين رجل وامرأة على الوجه الشرعي، ومن أهدافه تكوين أسرة أساسها المودة والرحمة والتعاون وإحصان الزوجين والحفاظ على الأنساب).

وهكذا يتوافق قانون السماء مع قانون هذه الأرض على أهمية الأسرة وتشققها وتكوينها تكويناً متماسكاً صالحاً. وتزيد الشريعة الإسلامية فتوجب حقوقاً للأسرة لا يوجد مثلها في أية شريعة أخرى أو قانون، خصوصاً في شأن المرأة سواء كانت أما أو زوجة أو بنتاً أو غيرها.

* د. عبد القادر عثماني عضو بالمجلس الإسلامي الأعلى وشيخ زاوية الحمدانية طولقة، بسكرة.

1. سورة النساء، الآية 01.

وإذا كان الناس في الشرق والغرب جعلوا يوماً في السنة للمرأة وسموه اليوم العالمي لرفع مكانتها فإن الإسلام رفع مكانة المرأة وشأها طول أيام حياتها لا يوماً واحداً في السنة.

وقد عظم الله شأن المرأة فقد جعل جنته تحت رجلها إن كانت أمّا، قال صلى الله عليه وسلم: "الْجَنَّةُ تَحْتَ أَقْدَامِ الْأُمَّهَاتِ". وجعل للزوج قواعد يكون معها هناء الزوجين وسعادة حياتهما، وفرض على الزوج حقوقاً لزوجته كما فرض للزوجة حقوقاً لزوجها.

وأمر الإسلام الزوج بحسن الخلق وحسن المعاملة مع زوجته. وحسن الخلق معها معناه تحمل الأذى منها والعفو عنها عند طيشها وغضبها، وذلك إقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد كانت زوجاته يراجعنه الكلام، ويهجره بعضهن، وكان يمازحهن ويداعبهن ويتنزل إلى درجات عقولهن، كل ذلك لتطيب قلوبهن.

قال صلى الله عليه وسلم: "أَكْمَلَ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا" وقال: "خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِنِسَائِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِنِسَائِي" وقال: "مَا أَكْرَمَ النِّسَاءَ إِلَّا كَرِيمٌ، وَلَا أَهَانَهُنَّ إِلَّا لَيْئِمٌ" وقال: "اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا".

وقال: "اتَّقُوا اللَّهَ فِي الضَّعِيفِينَ الْمَرْأَةِ وَالرَّقِيقِ" أي العبد المملوك، وآخر وصية وصى بها الرسول صلى الله عليه وسلم أمته عند وفاته الصلاة والنساء، ولا زال يكرر ويلح حتى تلجج لسانه وخفي صوته فقال في النساء: "اللَّهُ اللَّهُ فِي النِّسَاءِ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ". وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾¹، وقال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾²، فالعلاقة بين الزوج وزوجته علاقة لباس، هو لباس لها، وهي لباس له، ومن شأن اللباس ومهامه أن يستر صاحبه ويحفظه ويصونه ويكسبه بهاء.

1. سورة الروم: 21 - 2. سورة البقرة: 187.

وكما اشتركت العلاقة بين الزوجين، كذلك اشتركت بينهما الحقوق والواجبات والمسؤوليات، ولكن مسؤولية الرجل أعظم وأضخم، قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ¹﴾، هذا قرار إلهي يحمل الرجل المسؤولية كاملة ليقوم بزوجه ويحفظها ويحفظ شرفها ويؤدي لها كل حقوقها المشروعة ويتولى كل شؤونها، وهذا هو معنى القوام كما أوجب الله تعالى على الزوجة أن تكون مطيعة وأمينة وعفيفة ومخلصة تحترم زوجها وترعى مصالحه، وهكذا وزّع الله الحقوق والواجبات على الزوجين معا وجعلها بينهما مشتركة لأنهما شريكان في حياتهما الطويلة، قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ²﴾. وهنا أيها الأخوة يجب علينا أن نعرف ما هو المعروف في الآية الكريمة، إنه كل ما جرى به العرف وصار متعارفا عليه بين الناس، ولا يتقيد المعروف بزمان، بل يظل يتغير ويتطور ولا يتقيد بمقياس إلا مقياس ما أحله الله وحرمه، أي أن العرف لا يحل حراما ولا يجرم حلالا. والمعروف الذي أمر الله به هو العرف الذي عليه عادات الناس وطرق تعاملهم وأساليب حياتهم دون الخروج عن أحكام الدين. ويجب أن نعلم أن سعادة الزوج والأولاد لا تتم إلا إذا كانت الزوجة سعيدة بزوها.

وإن الأطفال الذين تربيتهم زوجة شقية من زوجها أو تعيسة أو مهانة يستحيل أن يكونوا أولادا صالحين وبنات صالحات. وإذا انعدم الاحترام بين الرجل وامرأته فإن أولادهما لا يحترمون أبا ولا أما. كما أن الأولاد إذا وجدوا شقاقا وخلافا أو نزاعا بين أبيهم وأمهم، فإنهم جميعا ذكورا وإناثا ينحازون إلى جانب الأم سواء كانت مظلومة أو ظالمة، ويصير الأب معزولا أجنبيا غريبا في داره ومبغوضا من الجميع وفاقدًا لأي نفوذ وسقط قدره وضاعت قيمته كرب أسرة ويبقى كقطعة حديد يجتذبه مغناطيس الحيرة والهلم من كل الجهات ولا يجد لنفسه

1. سورة النساء، الآية 34 - 2. سورة البقرة، الآية 228.

مخرجاً من الضيق والهوان، وينتج من هذا اضطراب في هيكل الأسرة وتنحرف وتفسد ويفسد نتاجها ويصير كل فرد فيها آلة للتخريب والفتنة والفساد، ثم بعد ذلك يكون الحل صعباً والإصلاح عويصاً، ويقضى على الأسرة بكاملها شر قضاء.

إن حالات كهذه هي التي جعلت الكثير من شبابنا وشاباتنا يكرهون الزواج ويميلون إلى الانحراف والشذوذ.

بهذا التوضيح والتحليل ندرك أن الزوجة هي التي يركز عليها البناء العام للأسرة، فإذا أهانها زوجها ولم يحسن أخلاقه ومعاملته معها يكون هدم ذلك الأساس الذي يركز عليه البناء العائلي وهو الزوجة. وإن الذي لا يعاشر زوجته بالحسنى ولا يحترمها فإن الناس لا يثقون في علاقته وفي صداقته معهم ويحتقرونه مهما كان عالياً وراقياً عند نفسه.

ومن الخير لهؤلاء الذكور ولا أقول الرجال، من الخير لهؤلاء الذين لم يتعودوا على احترام نسائهم والإحسان إليهن، من الخير لهم ومن الأفضل أن لا يتزوجوا، فقد افسدوا الزواج بزواجهم، ومن شاء أن يسعد في بيته ومع أسرته فلينسلخ من كثير من عاداته وطباعه الوحشية الوحشية المنحطة وليزل عن نفسه تلك الحواجز النفسية الثقيلة، وليهتد بنور الأحكام والتعاليم الإسلامية المتعلقة بالأسرة وليحافظ على كرامته في مجتمعه وليحول رجولته وقوته وشهامته وشجاعته إلى إحسان وحنان ورحمة وعطف وتفهم، فهذه هي عناصر القوة التي ينبغي أن يتقوى بها رب العائلة على بناء أسرة قوية ناجحة سعيدة يسعد هو وينجح بسعادتها ونجاحها، ويكون بذلك قد عمل من أجلها حقاً.

فالأسرة أيها الإخوة كالبنين تحتاج من صاحبها إلى التصليح والترميم والتقويم والتحسين وإن فرط أو انحرف فإن ذلك البنين سينهار عليه وعلى أسرته وهو وحده الذي يتحمل المسؤولية كاملة على ذلك التدمير أمام الله وأمام المجتمع والتاريخ.

ويجب أن نعلم أن خير البيوت ما عمر بحسن العشرة والألفة والمحبة والرحمة والحنان والمودة والتفاهم والاحترام، وشر البيوت ما ساءت فيه العلاقات، ولا تحسن العشرة ولا تصلح إلا بمراعاة كل من الزوجين حق الآخر. فلا يجوز للزوج أن يمنع زوجته من زيارة أهلها لا سيما في المناسبات، ولا يجوز أن يمنع زوجته من التصرف في مالها بغير رضاها.

ولا يجوز للزوج أن يسهر كثيرا خارج منزله، فإن طول السهر خارج المنزل يحرك الوسواس في الزوجة ويثير الفتنة، ولم يجعل الله المنزل العائلي فندقا للنوم ولكنه مقر للأنس والتربية وتبادل العواطف.

ولا يجوز للزوج أن يهجر زوجته بلا سبب معقول مقبول. ولا يجوز أن يدخل على زوجته أجنب عنها من رجال أو نساء، قال صلى الله عليه وسلم: "إِيَّاكُمْ وَالْدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ، فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا خَلَا رَجُلٌ بَأْمْرًا إِلَّا كَانَ الشَّيْطَانُ ثَالِثُهُمَا". وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾¹.

ولا يجوز للزوج أن يشتري لزوجته أو بناته لباسا مكشوفاً، وحرام عليه أن يقبل ذلك منهن أو يسكت عليه.

ولا يجوز للزوج أن يسمح لزوجته أو بنته بالخروج من المنزل مترينة أو متعطرة أو متبرجة، فإن ذلك يدل على ضعف دينه وانعدام غيـرته. قال صلى الله عليه وسلم: "أَيُّمَا امْرَأَةٍ اسْتَعْطَرَتْ فَخَرَجَتْ عَلَى قَوْمٍ لِيَجِدُوا رِيحَهَا فَهِيَ زَانِيَةٌ". قال تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِلزَّوْجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ"². ولا يجوز للزوج أن يسمح لزوجته أو لأية أنثى في منزله بالكلام في التلفون مع الرجال الأجانب، فإن ذلك أخطر وأقبح من الكلام بالاتصال المباشر وجها لوجه، لأن العين تستحي من العين كما يقال، أما الأذن فإنها لا تستحي من الأذن في المكالمات

1. سورة الأحزاب، الآية 53 - 2. سورة الأحزاب، الآية 59.

الهااتفية، فيستطيع كل من المرأة والرجل الأجنبي عنها أن يتكالم بالهااتف مع بعضهما بلا احتشام ولا استحياء وبلا حدود. فيجب أن يكون كلام المرأة مع الأجنبي بالهااتف أو مباشرة كلاما مقتضيا وبلهجة جدية حازمة وباختصار واقتصار على الفائدة فقط كأسلوب البرقية البريدية عند الشحيح.

قال تعالى يخاطب النساء : ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا وَقُرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا¹.

ولا يجوز للزوج أن يجرد زوجته مما عندها من ذهب لبيعه، فهذا رجل لا مروءة له ولا رجولة ولا نخوة.

فمن الرجال من يهدد امرأته بالطلاق إن لم تعطه مصوغها لبيعه، فتختار هذه العيسة أهون الشرين وتسلم له ما طلب. قال الله تعالى: ﴿وَأْتَيْتُمُ إِحْدَاهُنَّ فَنِطَارًا (أي من الذهب) فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا، وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا². وهذا تهديد زاجر خطير من الله تعالى لمن يفعل ذلك.

ومن الرجال من يحتقر زوجته إن كانت فقيرة ويحتقر أهلها لفقرهم، وإن كانت غنية أو موظفة أو عاملة طمع في مالها، هذه حالة

1. سورة الأحزاب، الآيات 32-33-34-35-36 - 2. سورة النساء، الآيات 20-21.

كثير من ذوي الأخلاق السيئة والطباع المنحطة، ومن الرجال من يبغض زوجته لأنها تلد له البنات فقط، فهل لهذه الزوجة تصريح في ذلك، ولماذا لا يعاب هو ويبغض لأن النطفة نطفته. إذا صح أن يتشبث الزوج بهذه الخرافة، فإنجاب الذكور والإناث هو بيد الله تعالى وحده، قال جل علاه: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ، أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾¹.

والأدهى والأقبح من كل ما ذكر هو ما نسمعه باستمرار من التلفظ بالطلاق والتحریم لأي حادث بين الزوج وزوجته، وكثيرا ما تكون الزوجة لا علاقة لها بالحادث أصلا ولا كانت سببا فيه، فقد يتشاجر شخص مع آخر أو يختلف معه في أمر فتثور فيه زوبعة الغضب فيحلف بالطلاق أو بالحرام أو بالثلاث، هكذا بكلمة واحدة طائشة تنشت أسرة ويفترق شمل وترمل زوجة ويتشرد أطفال ويحزن الأهل والأقارب والأصدقاء وتتحطم قلوب ويفرح الأعداء والأشرار والشياطين.

وقد يكون بين الزوجين المفترقين أطفال صغار، إن أخذهم أبوهم ضاعوا وإن أخذتهم أمهم جاعوا، فالطلاق بأي شكل ولأي سبب ضربة قاسية موجعة في كيان الأسرة ويبغض المولى جل وعلا، قال صلى الله عليه وسلم: "أَبْغَضُ الْحَلَالِ إِلَى اللَّهِ الطَّلَاقُ". هذه أيها الإخوة بعض من الآفات العائلية وتكدر الحياة وتبعد المخلوق عن خالقه جل علاه، فيجب على كل واحد منا أن يعلم ويعتقد أن جميع أفعالنا وتصرفاتنا تحت نظر الله يحاسبنا عليها ذرة ذرة. وأن رب العائلة مسؤول عن كل فرد في كفاله أمام الله يوم القيامة يوم لا ينفع ندم ولا يقبل اعتذار.

قال صلى الله عليه وسلم: "كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّ رَاعٍ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ". وإذا كنت أيها المسلم مسؤولا فكيف يكون جوابك يوم تسأل؟ نسأل الله الهداية والرشاد والسداد، وأن يرفعنا من الهاوية إلى المقامات وأن يجعل أعمالنا صالحة وحياتنا صالحة.

1. سورة الشورى، الآيات 49-50.